# الضريح الملكي الموريطاني من خلال بعض الدراسات الأجنبية

أ. عبد الكريم فايزي

قسم العلوم الانسانية– جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي

**********

**ملخَّص:**

الضريح الملكي الموريتاني (الواقع بولاية تيبازة حاليّاً) أو كما يُعرف "بقبر الرومية" هو صفحة من صفحات الترابط التاريخي بين ماضي بلاد المغرب القديم وحاضرها، عمرها قرون من الزمن، فبالإضافة لكونه معلماً تاريخيّاً وسياحيّاً وتحفة معمارية فهو أيضاً شاهد من الشواهد الحضارية للمنطقة ككل، وتهدف هذه الدراسة إلى إلقاء نظرة على هذا الصرح التاريخي من خلال ثلاث دراسات أجنبية، واحدة أُجريت خلال أواخر فترة الإحتلال الفرنسي للجزائر، أما الدراستين المتبقِّيتين فصدرتا بعد الإستقلال.

**مقدمة:**

عرفت الجزائر خلال الفترة القديمة أو فترة ما قبل الفتح الإسلامي مجموعة من الحضارات التي تعاقبت وتداولت على أرضها، منها حضارات أقامها أبناء البلد، ومنها من جاءت مع الغزو أو الإحتلال الذي شهدته المنطقة خصوصاً من قبل الرومانيين والبيزنطيين. ولعل من أبرز الحضارات التي قامت ها هنا وكان لأبناء الأرض المبادرة

لإقامتها، الحضارة النوميدية التي تركت عليها شواهد عدَّة يُعتبر "القبر الملكي الموريتاني" أو ''قبر الرومية'' أبرزها.

## أولاً: التعريف بالضريح الملكي الموريطاني:

"الضريح الملكي الموريتاني"[1] أو كما يدعوه السكان المحلِّيون "قبر الرومية"[2] هو أثر جنائزي يقع بالمنطقة الأثرية التي تقع ببلدية "سيدي راشد" ولاية "تيبازة"، وهو مبنى دائري الشكل على الطريق المؤدِّي من مدينة الجزائر إلى "شرشال"، يقع القبر الملكي الموريتاني في غرب العاصمة الجزائرية بنحو سبعين كيلومتراً، وهو مُصنَّف كمعلم وطني وتراث عالمي من طرف منظمة "اليونيسكو"[1].

يقع القبر على رأس ربوة بالساحل الغربي للجزائر العاصمة، يعلو سطح البحر بمقدار 261 متراً ويظهر للناظر من سهل "متيجة" (بالبليدة جنوب العاصمة) ومن

---

[1]- للمزيد من التوسع حول الضريح الملكي الموريطاني أنظر:

Pietro ROMANELLI : Ancora sull'eta della Tomba della Cristiana in Algeria, ArchCI 24, 1972, 109 – 11.

[2]- تعتبر تسمية ''الضريح الملكي الموريتاني'' التسمية الرسمية المعتمدة لدى المختصين في الآثار ورجال الثقافة والعارفين بخبايا التاريخ القديم، رغم أن السكان بمنطقة "سيدي راشد" و"تيبازة" والكثير من الجزائريين عموماً يطلقون على المكان أيضاً اسم ''قبر الرومية''.

[1]- تم تصنيف هذا الموقع في عام 1982م ضمن التراث العالمي للإنسانية من طرف منظمة "اليونيسكو" تحت اسم "تيبازة" وبصفة رقم (III) (IV)، كما يوجد هذا المعلم التاريخي والسياحي ضمن قائمة التراث العالمي لمنظمة التربية والثقافة والعلم التابعة للأمم المتحدة ''يونيسكو'' منذ سنة 2002م كواحد من الأضرحة الملكية الموريتانية وكذا المواقع الجنائزية لفترة ما قبل الإسلام تحت عنوان "الضريح الملكي النوميدي الموريطاني" وبصفة رقم (II) (III) (IV)، أنظر:

Ref. 1776 [archive] du patrimoine mondial.

مرتفعات "حي بوزريعة" (بأعالي العاصمة) ويراه الصيَّادون والملاَّحون من البحر ويهتدون به في تنقلاتهم البحرية.

يبلغ محيطه 185.5 متراً وقطره 60.9 متراً وعلوُّه 32.4 متراً، ويبرز في الخارج 60 عموداً من النمط الأيوني، وأربعة أبواب خفية، يمكننا الدخول إلى الضريح عبر باب سفلية وضيقة توجد تحت الباب الخفية للناحية الشرقية. في الداخل بعد المرور على قبر ودهليز نصل إلى رواق دائري الشكل به قبران آخران، الثاني مزين بثلاث تجاويف غرباً شمالاً وجنوباً[2].

إذا بلغ زائر الربوة المكان، تراءى له القبر الضخم على شكل أسطواني ذي صفائح يعلوه مخروط مُدرَّج، ويتزين في دائرته بـ60 عموداً مميزا بتيجان إيوانية يحمل كل واحد منها إفريزاً. ويتربع هذا الشكل الهندسي على قاعدة مربعة ضلعها 63.40 متراً. ويوجد أمام باب القبر آثار بناية يبلغ طولها 16 متراً وعرضها 6 أمتار كانت في الزمن الغابر معبداً[3] ويتكون القبر من أربع صفائح حجرية عبارة عن أبواب وهمية علو

(2)- Duane R. ROLLER : The World of Juba II and Kleopatra Selene : Royal Scholarship on Rome's African Frontier, Routledge, New York and London, 2003, p. 129.

(3)- Mounir BOUCHENAKI : Le Mausolée Royal de Maurétanie, traduction en arabe de Abdelhamid HADJIAT, Ministère de l'information et de la culture, Direction des musées, de l'archéologie et des monuments et sites historiques, Alger, 1979, p. 13.

الواحد منها 6.90 متراً يحيط بها إطار من نقوش بارزة يتراءى منها رسم شبيه بالصليب[4].

ويُخيَّل لمن يشاهد القبر من بعيد أنه خلية نحل عظيمة أو كومة تبن ضخمة، ومن يدنو منه يشعر بعظمة هيكله. ومن ميزات هذا المعلم الهندسي أن لونه يتغير حسب الفصول وحسب ساعات النهار، فهو تارة يميل إلى الاصفرار وتارة يأخذ لوناً رماديّاً أو تعلوه زرقة عندما يحيط به الضباب.

عند اجتياز باب القبر، ينفذ الزائر إلى رواق يضطر من يمشي فيه إلى الانحناء، وفي حائطه الأيمن يمكن مشاهدة نقوش تمثل صورة أسد ولبؤة وقد نُسب الرواق إلى النقوش فسُمي "بهو الأسود"[1] وباجتياز الرواق يجد الزائر نفسه في رواق ثان طوله 141 متراً وعلوُّه 2.40 متراً شكله ملتو، ويقود مباشرة إلى قلب المبنى الذي تبلغ مساحته 80 متراً مربعاً. وخلافاً لما قيل في الماضي فإن الباحثين لم يعثروا على أثر لأي كنز فيه.

ويحمل القبر الموريطاني الطابع الإنشائي أو النمط البنائي الشائع والمعمول به في كافة أنحاء البلاد النوميدية، فمثلاً في منطقة "مدراسن" (التي تقع في الشرق الجزائري وبالضبط إلى الشمال قليلاً من "تيمقاد") يوجد بهذه المنطقة قبر شبيه في شكله إلى

---

[4]- تعتبر هذه الزينة في شكل ''الصليب'' هي العامل الذي كان وراء التسمية التقليدية للضريح بكونه ''قبر الرومية'' كتسمية تقليدية اعتُمدت لدى السكان منذ فترة طويلة مما جعل بعض الباحثين في الآثار يعتقدون أنه مبنى مسيحي، ومنه جاء اسم «قبر الرومية» المأخوذ من مفردة «الرومي» العربية أي البيزنطي أو الروماني. لكن كثيراً من علماء الآثار يؤكدون أن المبنى لا صلة له بالمسيحية.

[1]- Duane R. ROLLER : op. cit., p. 129.

حد بعيد بالضريح الموريطاني[2] حيث يذهب بعض الباحثين إلى التاكيد أن قبر مدراسن هذا قد يكون قبر الملك النوميدي الشهير "ماسينيسا"[3].

## ثانياً: تاريخ تشييد الضريح:

بالنسبة لتاريخ بناء الضريح الملكي الموريتاني وكذا وظيفته الحقيقية فتبقى أمور غير معروفة بدقة، حيث أن هناك عدة روايات حول تاريخ بناءه، بعض المؤلَّفات الرومانية القديمة التي تعود إلى أربعين سنة بعد الميلاد، تؤكد أنه كان موجوداً خلال عهد استيلاء الرومان على مملكة "موريتانيا القيصرية"[4] وهي أحد أهم الممالك الأمازيغية في الشمال الإفريقي القديم.

---

(2)- Ghazi BEN MAIZA : Le culture royale en Afrique Mineure antique, Hésperis – Tamuda, 35.2 , 1997, p. 32 – 41.

(3)- Gabriel CAMPS : Nouvelles observations sur l'architecture et l'age du Medracen, mausolée royale de Numidie, CRAI, 1973, p. 470 – 517.

(4)- موريطانيا القيصرية (باللاتينية: Mauretania Caesariensis) هي واحدة من الممالك الأمازيغية في الشمال الإفريقي القديم، سُميت بموريتانيا القيصرية نسبة للقيصرية (ايول) عاصمة المملكة (مدينة شرشال حاليّاً)، تحدها شرقاً مقاطعة أفريكا الرومانية (تونس وبعض الأجزاء من الشرق الجزائري) وغرباً موريتانيا الطنجية (شمال المغرب حاليّاً). أشهر ملوكها: "يوبا الأول" و"يوبا الثاني" (زوج سيلين ابنة الملكة كيليوباترا)، أنظر: مارمول كربخال: أفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد بن جلون، ثلاثة أجزاء، دار نشر المعرفة، الرباط، 1989م، ج 2، ص 209، وانظر أيضاً:

M. BENABOU : La résistance africaine à la romanisation, Paris, 1976, Nacéra BENSEDDIK : Les Troupes auxiliaires de l'armée romaine en Maurétanie Césarienne sous le Haut-Empire, Alger, 1982, Michel CHRISTOL : Regards sur l'Afrique romaine, Paris, 2005.

ويميل المختصون في الآثار الرومانية إلى القول بان الملك "يوبا الثاني"[1] هو الذي أشرف على بناء القبر ليكون ضريحاً له ولـ "كليوباترا سيليني"[2] (ابنة كليوباترا

[1]- "يوبا الثاني" أو "جوبا الثاني" ابن "يوبا الأول" ولد حوالي 52 ق.م وتوفي حوالي 23 ب.م، بعد هزيمة "جوبا الأول" أمام القوات الرومانية، أسر "يوليوس قيصر" ابنه "جوبا الثاني" الذي كان طفلاً صغيراً بين خمس وسبع سنوات، فحمله إلى روما، حيث نشأ في القصر، وعاش في كنف الإمبراطور "أغسطس" الذي خلف "قيصر"، فعلَّمه الفنون والآداب والعلوم وشؤون الحكم في مدارس روما وأثينا ومعاهدهما. ونظراً لمكانة "جوبا الثاني" الثقافية، وإخلاصه للإمبراطور الروماني القيصر "أوكتافيوس"، فقد أجلسه هذا الأخير على عرش موريطانيا الغربية؛ حكم "جوبا الثاني" خمسين سنة في ظل الحماية الرومانية. عرفت أيامه بالاستقرار والهدوء حتى توفي سنة23م، ليخلفه ابنه "بطليموس" الذي نهج سياسة أبيه في توحيد الأمازيغيين، وتحقيق آمالهم وطموحاتهم، أنظر: محمد الهادي حارش: التاريخ المغاربي القديم الحضاري والسياسي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992م، وانظر أيضاً:

Mouloud GAID : Aguellids et Romains en Berbérie, éditions SNED, Alger, 1972, p. 120.

[2]- كليوباترا سلينه الثانية هي أميرة بطلمية وهي الإبنة الوحيدة للملكة "كليوباترا السابعة" ملكة مصر و"مارك أنتوني" أحد رؤساء الجمهورية الرومانية. ولدت كليوباترا ونشأت وتعلمت في الإسكندرية في أواخر عام 34 ق.م، هُزِم والداها على يد "أوكتافيان" (الامبراطور الروماني، لاحقاً، أغسطس) في معركة "أكتيوم" البحرية عام 31 ق.م، أخذ "اوكتافيان" كلاً من "كليوباترا سيلينه" وأخواتها من مصر إلى روما، وأعطى الأطفال الثلاثة إلى "اوكتافيا الصغرى" لتربيهم في بيتها، و"اوكتافيا الصغرى" هذه كانت ثاني أكبر شقيقات "اوكتافيان" وكانت الزوجة الأولى لوالد الأطفال. وبين عامي 26 و20 ق.م، رتَّب أغسطس لكليوباترا سلينه أن تتزوج الملك "يوبا الثاني" من نوميديا في روما. تم إرسال الزوجين إلى موريطانيا، التي كانت منطقة ثغور غير منظمة وبحاجة إلى متابعة رومانية. وغيَّرا اسم عاصمتها إلى "قيصرية" (شرشال الحالية) تكريماً للامبراطور، أنظر:

Michèle COLTELLONI -TRANNOY : Le royaume de Maurétanie sous Juba II et Ptolémée, CNRS Éditions, Paris, 1997, Beatrice CHANLER : Cleopatra's Daughter, Liveright Publication Corporation, New York, 1934.

ملكة مصر الفرعونية) التي كانت زوجته[3] ويستندون في ذلك إلى كون "يوبا الثاني" كان ملكاً مثقفاً يتذوق فن العمارة، وقد جلب إلى عاصمته أيول (شرشال) تحفاً فنية اشتراها من بلاد اليونان.

وكان "يوبا الثاني" ملكا قويّاً وقائداً عسكريّاً، حكم موريتانيا الطنجية بين 25 قبل الميلاد و23 ميلادية (وخلال هذه الفترة تم بناء الضريح الملكي الموريطاني). عُرف عهده بالازدهار والرخاء، وازدهرت في عهده الفنون والآداب والعمران فكان عصره عصراً ذهبيّاً. وكانت عاصمته أيول (شرشال) حاضرة من حواضر المنطقة وكانت تحوي مصانع لمواد البناء والسلاح وغيرها[1].

وقد أكَّد المؤرخ الروماني الشهير "ميلا بومبونيوس" (مؤرخ في الأربعينيات بعد الميلاد، وهي الفترة التي تم فيها ضم مملكة موريتانيا إلى روما) أن هذا المبنى هو عبارة عن مقبرة للعائلة الملكية في عهد ملك البربر "يوبا الثاني" ملك مملكة موريطانيا القيصرية وذلك في العام 40 قبل الميلاد في كتاب خاص عنه[2].

---

[3]- اعتبر بعض المؤرخين زواج "كليوباترا سيليني الثانية" بالملك الأمازيغي "يوبا الثاني" سنة 26 ق.م مجرَّد ادعاء، وكان هذا الرأي محل انتقاد عنيف من السواد الأعظم من علماء الآثار وعلماء التاريخ المصري والبطلمي والأمازيغي. ومن بين أدلَّتهم على ذلك: أنه لم يرد في البرديات المصرية ولا على جدران المعابد ما يؤيِّد هذا القول. ولا توجد وثائق أو مخطوطات بطلمية في روما تؤكِّد هذا الزواج. وأن معظم علماء التاريخ الأمازيغي أكَّدوا أن السيدة التي تظهر صورتها على عملة قديمة وجدوها هي عشيقة الملك "يوبا الثاني". إضافة إلى كراهية قدماء المصريين للزواج بالأجانب واعتبروه نجاسة، فلم يحدث أن تزوجوا بأجانب إلا في أحوال نادرة جدّاً فرضتها ظروف سياسية معينة.

[1]- Stéphane GSELL : Histoire de l'Afrique du Nord, édition Hachette, Paris, 1920, p. 44.

[2]- Pomponius MELA : 1.31, Duane R. ROLLER : op. cit., p. 129.

ويقدِّم المؤرخ الشهير "رومانيلي" رواية أخرى، حيث يقول أن القبر بُني في القرن الخامس أو القرن السادس للميلاد، ويعتقد أن من بناه استلهم شكله الهندسي من القبر المستدير الذي بناه الإمبراطور "هادريان" الذي حكم بين سنتي 117 و138 بعد الميلاد في روما.

كما يعتقد علماء معاصرون آخرون أن الدراسة المعمارية للمعلم تسمح بتأريخ فترة بنائه، تقريباً، في القرن الأول أو الثاني قبل الميلاد، وبالتالي فإن بناء القبر الموريطاني تمَّ في حقبة ما قبل سيطرة الرومان على شمال إفريقيا.

إذن وحسب العديد من الدارسين فإن الضريح الملكي الموريتاني أو "قبر الرومية" وُجد قبل الاحتلال الروماني، مما يدلل في نظر هؤلاء على تطور المجتمع "الموريتاني" اقتصادياً وفكرياً وحضارياً وقدرته على إبداع فن أصيل بفضل اتصاله بحضارات شمال أفريقيا والمتوسط الأخرى.

**ثالثاً: دراسة مارسيل كريستوفل:**

قام الباحث الفرنسي "مارسيل كريستوفل" Marcel CHRISTOFLE[3] بإجراء دراسة واسعة خلال فترة زمنية طويلة حول الضريح

[3]- مارسيل كريستوفل (ولد في قسنطينة سنة 1877م، وتوفي في الجزائر العاصمة سنة 1956م) هو مهندس معماري فرنسي، وخبير في المعالم الأثرية التاريخية، عمل لمدة 40 سنة (منذ سنة 1919م إلى غاية 1953م) على دراسة بعض المعالم الأثرية التاريخية في الجزائر، وكان الضريح الملكي الموريطاني من أهم المعالم التي عمل عليها هذا الباحث، أنظر:

الملكي الموريطاني، والتي جاءت تحت عنوان: "قبر المسيحية" ( Le tombeau de la Chrétienne)[1] حيث نُشرت الدراسة في باريس سنة 1951م في كتاب من أربع محاور كبرى، في 188 صفحة و 164 صورة مختلفة الأحجام[2] وقد قدَّم للكتاب الباحث الفرنسي الشهير "ألبرت قرينيي" Albert GRENIER[3].

لقد اهتم مارسيل كريستوفل ولسنوات طويلة بالضريح الملكي الموريطاني، فمنذ سنة 1912م وإلى غاية 1951م قام بدراسات مطوَّلة على كل جزء بالقبر[4] وبعد

---

Michel MORINEAU : Incroyables gazettes et fabuleux métaux, édition Cambridge University Press, New York, et éditions de la Maison des Sciences de l'lHomme, Paris, 1985, p. 327.

(1)- أصل هذه التسمية هو "قبر الرومية" (Le tombeau de la Romaine) والتي حوَّلها الفرنسيون إلى "قبر المسيحية"(Le tombeau de la Chrétienne) وهي التسمية المفضَّلة عند الفرنسيين بدلاً من الإسم الرسمي وهو "الضريح الملكي الموريطاني".

(2)- Marcel CHRISTOFLE : Le tombeau de la Chrétienne, édition Arts et Métiers Graphiques, Paris, 1951.

(3)- ألبرت غرينيي (1878 – 1961م) هو مؤرخ وعالم آثار فرنسي شهير، متخصص في التاريخ الغالي (تاريخ غاليا – فرنسا-) والروماني القديم، له العديد من الدراسات والأعمال في هذا المجال منها: ( La Gaule province romaine)، (Les Gaulois)، ( Le Génie romain dans la religion, la pensée et l'art)، للمزيد من التوسع أنظر:

Raymond BLOCH et Paul-Marie DUVAL : Albert GRENIER (1878-1961), École pratique des hautes études. 4e section, Sciences historiques et philologiques, 1962 ,Vol. 95, N° 1, p. 25-37.

(4)- Duane R. ROLLER : op. cit., p. 129, Michael BRETT and Elizabeth FRENTRESS : The Berbers, Edition Blackwell, Oxford, 1996, p. 44.

سنوات من العمل وجمع المعلومات ومرافقة وترأُّس العديد من البعثات الإستكشافية قدَّم النتائج المتحصل عليها في كتابه السالف الذكر[5].

وبالرغم من أن عمل هذا الباحث الفرنسي كان خلال فترة الإحتلال الفرنسي للجزائر إلا أننا نجد العديد من الباحثين الفرنسيين يذهبون إلى التأكيد بأن لمارسيل كريستوفل دور كبير في بقاء الضريح والحفاظ عليه من قبل سلطات الإحتلال الفرنسية، وذلك بفضل عمله على التنويه بأهمية هذا المعلم وضرورة الحفاظ عليه وإلا لكان تعرَّض هذا البناء ربما للإهمال أو التخريب أو التهديم[6] حسب قولهم.

وقد قام الكاتب بذكر وتفصيل الإكتشاف الذي تمَّ على مستوى الضريح الموريطاني سنة 1865 – 1866م[1] حين أُطلقت حملات تنقيب جديدة من جانب "أدريان بيربروغر" Adrien BERBRUGGER مفتش المعالم التاريخية، وذلك بطلب من "نابليون الثالث" NAPOLEON III حاكم فرنسا في ذلك

---

(5)- Sigfried J. DE LAET : Le tombeau de la Chrétienne de Marcel CHRISTOFLE, Revue de l'antiquité classique, 1952, Vol. 21, N° 2, p. 552.

(6)- تبقى هذه مجرَّد آراء تنظيرية للباحثين الفرنسيين ربما لتكريس فكرة اهتمامهم الدائم بالآثار والتراث الإنساني عموماً، أو لإبراز دورهم في الحفاظ على هذا المعلم ونسبة ذلك إلى أحدهم، وربما يعود سر المحافظة على هذا البناء من قبل الفرنسيين لمجرَّد أنه يعود للفترة القديمة حيث عانت بلاد المغرب ولفترات طويلة من الإحتلال الروماني، وكما هو معلوم فقد اهتم الفرنسيون في الجزائر بكل آثار الفترة القديمة (الرومانية خاصة) وذلك على عكس الآثار التي تعود للفترة الإسلامية أو الوسيطة، أو حتى العثمانية.

(1)- R. GOODCHILD : Marcel CHRISTOFLE : Le tombeau de la Chrétienne, Journal of Roman Studies, Vol. 43, Issue 1-2, November 1953, p. 204.

الوقت، وقد سمحت هذه الحملة بتحيين المدخل الحقيقي للضريح والذي كان قبل ذلك مجهولاً على مدار القرون، ويقع هذا المدخل تحت المكان الذي تعلوه البوابة الشرقية.

وباستعمال المتفجرات أدَّت عملية التنقيب تلك إلى اكتشاف النفق المنحني الذي يقع تحت الأرض، والذي يتم الدخول إليه عن طريق باب ارتفاعه 1.1 متر، ويربط النفق ثلاث غرف طولها 5.33 متر وعرضها 2.52 متر وارتفاعها 3.20 متر[2] هذه الغرف ربما كانت مُعدَّة لاستعمالها كأماكن للدفن، لكنها كانت فارغة عند اكتشافها وهذا يفتح العديد من التساؤلات حولها وحول الغرض الذي بُنيت من أجله.

وقد أيَّد مارسيل كريستوفل الطرح القائل بأن الصرح الموريطاني هو ضريح ملكي للملك "يوبا الثاني" ملك مملكة موريطانيا القيصرية وزوجته "كليوبترا سيليني" متماشياً مع الإتجاه الذي سبقه إليه الباحث "ستيفان جسيل" Stephane GSELL[3] وذكر كريستوفل أن البربر يسمون الضريح "قبر الرومية"[4] في حين أنه استعمل تسمية "قبر المسيحية" في دراسته وهي التسمية التي يفضلها الباحثون الفرنسيون عموماً.

كما أشار مارسيل كريستوفل أيضاً في هذه الدراسة إلى أن العديد من الأساطير والحكايات المحلِّية وغير المحلِّية التي تشير إلى أن الضريح الملكي الموريطاني يحوي كنوزاً وثروات عديدة (ربما نُهبت في فترة من الفترات وربما لم يتم العثور عليها بعد)، وذكر الكاتب أهم عمليتين للتنقيب كان هدفهما الرئيسي البحث عن كنوز هذا

(2)- Marcel CHRISTOFLE : op. cit., p. 85.

(3)- Stéphane GSELL : op. cit., p. 40.

(4)- R. GOODCHILD : op. cit., p. 204.

البناء وهما: عملية بايلرباي الجزائر "صالح رايس"[5] في القرن السادس عشر[1] والعملية التي أُجريت في الفترة الإستعمارية خلال القرن التاسع عشر[2] ولم تصل العمليتين السالفتي الذكر وغيرهما من الأعمال إلى اكتشاف أي كنوز أو ثروات بالضريح مما جعل البناء – حسب الكاتب دائماً – محافظاً باستمرار على أسراره[3].

**رابعاً: دراسة فيليبو كواريللي وإيفون تيبرت:**

قام الباحثان الإيطالي "فيليبو كواريللي" Filippo COARELLI[4] والفرنسي "إيفون تيبرت" Yvon THEBERT[5] بإجراء دراسة عن الضريح

---

(5)- صالح رايس (1488 – 1568م) أجمع المؤرخون على أن أصل صالح رايس هو عربي ومن الإسكندرية، تعرَّف إلى الأتراك حين قدومهم إلى مصر، وقد رافق البحَّار "خير الدين" في رحلاته البحرية، من أهم أعماله: ساهم في إنقاذ بقايا المسلمين في الأندلس، وقد تولى منصب حاكم الجزائر (بايلرباي) في عام 1552م فأتم فتح بجاية سنة1555م، وقضى على التمردات في المغرب الأقصى وفتح فاس في عام 1554م، وقضى على بقية الزيانيين، أنظر:

John B. WOLF : The Barbary Coast : Algeria under the Turks, New York, 1979, p. 54.

(1)- قام بايلرباي الجزائر "صالح رايس" سنة 1555م بعملية بحث واسعة عن كنوز وثرات الضريح الملكي الموريطاني، لكنها لم تصل إلى أي نتيجة، وقد خلَّفت هذه العملية أضراراً على مستوى الباب الشرقي للبناء وبعض الأماكن المحيطة به ، أنظر: Mounir BOUCHENAKI : op. cit., p. 13.

(2)- قام "أدريان بيربروغر" في عملية التنقيب سنتي 1865 – 1866م بالبحث على الكنوز والثروات على مستوى الضريح الملكي الموريطاني، رغم أن الهدف الأول لهذه الحملة كان استكشاف الضريح وليس البحث عن الثروات، لكن العملية لم تصل إلى أي نتيجة تخص الكنوز والثروات، في حين تم اكتشاف النفق التحتي من جهة الباب الشرقي الذي يؤدِّي إلى الغرف الثلاث الموجودة تحت الضريح.

(3)- Sigfried J. DE LAET: op. cit., p. 551.

(4)- فيليبو كواريللي (ولد سنة 1936م في روما) هو عالم آثار إيطالي وأستاذ متخصص في التاريخ الروماني والإغريقي القديم في جامعة "بيروجيا" الإيطالية l'université de Pérouse، له العديد من الأعمال

الموريطاني (ضمن دراسات حول العمارة النوميدية)، والتي كان عنوانها: "العمارة الجنائزية والسلطة : تأملات في الهيلينية النوميدية" (Architecture funéraire et pouvoir : réflexions sur l'hellénisme numide)[6] وقد نُشرت الدراسة في باريس سنة 1988م، وهي عبارة عن مقال موسَّع[1] في كتاب

---

والأبحاث الخاصة بالفترة القديمة منها: (Il foro romano 2 v. /1983) و( The Colosseum 2001/) و( The column of Trajan /2000)، أنظر:

Mario TORELLI : Topography and Archaeology of Rome, translated by Helen FRANCCHIA, in A Companion to the Roman Republic, edition Blackwell, 2010, p. 99.

(5)- إيفون تيبرت (1943 – 2002م) عالم آثار فرنسي ومؤرخ شهير بتأثره بالماركسية، كان عضواً في المدرسة الفرنسية لروما. للدراسات القديمة، وأستاذاً محاضراً في العديد من الجامعات والمدارس العليا في مختلف أنحاء العالم، له العديد من الأعمال والدراسات حول التاريخ الأوروبي والمتوسطي والشمال الإفريقي القديم على وجه الخصوص منها: (Thermes romains d'Afrique du Nord et leur contexte méditerranéen) و( L'évolution urbaine dans les provinces orientales de l'Afrique romaine tardive) و( La romanisation d'une cité indigène d'Afrique : Bulla Regia)، للمزيد من التوسع أنظر:

A. BENCHAOUCH : « Yvon Thébert », Antiquités africaines, t. 38-39, 2002-2003, p. 7-10.

(6)- Filippo COARELLI et Yvon THEBERT : Architecture funéraire et pouvoir : réflexions sur l'hellénisme numide, Mélanges de l'Ecole française de Rome Antiquité, 1988, Vol. 100, N° 2, p. 761-818.

(1)- تجدر الإشارة إلى أن مقال "كواريللي" و"تيبرت" خُصص لدراسة المعالم الجنائزية النوميدية عموماً، وبالخصوص ضريح مدراسن والضريح الموريطاني، ولأنه أسهب في الكلام عن القبر الموريطاني فإن هذه المعلومات هي التي سنناقشها، بغض النظر عن المقارنات التي أجراها الباحثان بين الضريح الموريطاني وضريح مدراسن على الخصوص أو حتى المقارانات التي أجرياها بينه وبين بقية العمائر الجنائزية النوميدية.

يحوي عدداً من المقالات، ضمن مجموعة من الإصدارات أشرفت عليها "المدرسة الفرنسية لروما. للدراسات القديمة"[2].

خلال هذا المقال[3] أكَّد كواريللي وتيبرت في البداية أن المصادر التي تخص الممالك النوميدية وتاريخها نادرة وذلك لأن الكتابات المحلِّية فُقدت، أما النصوص (التي كُتبت من غير النوميديين) التي وصلت إلينا والتي تتكلم عن نوميديا فهي مرتبطة بوقائع تاريخية معينة، ولا تتكلم بالتفصيل أو حتى ببعض التوسع عن التاريخ النوميدي، هذه النظرة من الخارج يمكن أن تعطينا لمحة عن الخطوط العريضة لتاريخ تلك الممالك، كما من الممكن أيضاً من خلال جمل قصيرة ضمن تلك النصوص استنتاج بعض التفاصيل.

---

(2)- "المدرسة الفرنسية لروما. للدراسات القديمة" (l'Ecole française de Rome. Antiquité): تتكون من مجموعة من الباحثين الذين يقومون بدراسات تخص: الفترة القديمة، الفترة الوسيطة، ومحور إيطاليا والبحر المتوسط، قامت المدرسة بإصدار مجلة علمية شهيرة تحت اسم: "مجموعات أبحاث في الآثار والتاريخ" (من سنة 1881م إلى سنة 1970م)، والتي تحول اسمها فيما بعد إلى: Les Mélanges de l'École française de Rome ، أنظر:

« Cent ans de publications », dans Archives de France, L'École française de Rome 1875-1975, Paris-Rome, 1975, p. 35-68.

(3)- هذا المقال هو ثمرة نقاشات طويلة بين الباحثيْن "كواريللي" و"تيبرت"، وذلك بعد ندوة شارك فيها "كواريللي" في المدرسة العليا في "سان كلود" l'Ecole normale superieure de Saint-Cloud في نوفمبر سنة 1976م وعرفت الندوة حضور "تيبرت"، أنظر:

Yvon THEBERT : Romanisation et déromanisaton en Afrique : histoire décolonisée ou histoire inversée ? dans Annales ESC, 33, 1978, p. 81.

وأشار الباحثان إلى أن حل هذه المشكلة قد يكون في ما يمكن أن يقدمه لنا علم الآثار كونه يلعب دوراً أساسيّاً في الكشف عن بعض التفاصيل التي تخص تاريخ هذه الممالك وأحوالها السياسية والإقتصادية والإجتماعية وحتى الثقافية، وذلك في غياب شبه كلّي للكتابات طبعاً[4] على الرغم من أن العديد من الباحثين الآخرين يؤكدون على عدم مقدرة علم الآثار على تزويدنا بما نحتاجه من معلومات تاريخية، إنما يمكنه إفادتنا فقط ببعض الإشارات المحدودة[5].

ولدراسة الضريح الملكي الموريطاني[1] أكّد كواريللي وتيبرت على أن الشكل الدائري للضريح هو طابع مميز يشترك فيه مع بقية الأضرحة النوميدية، وذلك بإجراء مقارنات مع بعض العمائر النوميدية الأخرى خصوصاً ضريح مدراسن، من خلال الشكل الخارجي العام، أيضاً بعض القياسات المتقاربة بين البنائين[2] وكذلك الإشارة إلى وقوع الضريحين في منطقة شمال جبال الأوراس[3].

(4)- Filippo COARELLI et Yvon THEBERT : op. cit., p. 761.

(5)- F. RAKOB : Architecture royale numide, dans les actes du colloque «Architecture et société de l'archaisme grec à la fin de la république romaine», Rome, 1980 – 1983, p. 326, C. et G. PICARD : Recherches sur l'architecture numide, dans Khartago, 19, 1977 – 1978, p. 15.

(1)- تجدرالإشارة إلى أن الباحثين "كواريللي" و"تيبرت" لم يخرجا عن تقاليد المدرسة الفرنسية بالنسبة لتسمية الضريح، حيث نجدهم يسمونه "قبر المسيحية" (Le tombeau de la Chrétienne) بدل التسمية الرسمية وهي "الضريح الملكي الموريطاني".

(2)- Filippo COARELLI et Yvon THEBERT : op. cit., p. 762 - 764.

(3)- G. CAMPS : Au origines de la Berbérie : monuments et rites funéraires protohistoriques, Paris, 1961, p. 201.

بعدها، قام الباحثان بتفصيل موقع الضريح وأبوابه وقياساته، مع وضع رسوم تخطيطية لمختلف جهات القبر، مستعينين في ذلك ببعض الدراسات السابقة[4] كل ذلك مع العودة دائماً إلى المقارنة بينه وبين ضريح مدراسن، مع إيراد كثير من التفاصيل التي تؤدِّي بشكل واضح إلى استنتاج واحد وهو تأكيد الباحثين على وحدة النمط البنائي والخصائص المعمارية للضريحين[5].

وبخصوص تاريخ بناء الضريح الموريطاني، فإن المقاربة التي قدمها كواريللي وتيبرت اعتمدت على علم الآثار – كما ذكرا في مقدمة مقالهما – وترتكز على أن شكل الأبواب والأقواس والرسوم التي تعلوها، وبالمقارنة مع التقاليد المعمارية الرومانية، يمكن استنتاج أن تاريخ بناء الضريح قد يعود إلى نهاية المئة الثانية وبداية المئة الأولى قبل الميلاد[6] ويمكن أن تمتد لمنتصف المئة الأولى قبل الميلاد[7] وبتعبير آخر فإن الفترة التي يُرجِّح الباحثان أن القبر الموريطاني بني فيها هي فترة حكم ملكين من ملوك موريطانيا القيصرية هما: "يوبا الأول" ثم ابنه "يوبا الثاني"، بدون أن يحدِّدا من من الملكين بالتحديد قام ببناء الضريح.

وقد ابتعد الباحثان كواريللي وتيبرت عن الإشارة إلى الرواية السائدة والتي تؤكد بناء الضريح الملكي الموريطاني من طرف "يوبا الثاني" وزوجته "كليوباترا سيليني"، وتركا فترة بنائه – كما رأينا – بين فترة حكم يوبا الأول وابنه يوبا الثاني، كما لم يناقش

(4)- F. RAKOB : op. cit., p. 331, G. CAMPS : op. cit., p. 201.

(5)- Filippo COARELLI et Yvon THEBERT : op. cit., p. 765 - 766.

(6)- Ibid, p. 766.

(7)- G. CAMPS : op. cit., p. 203 - 205.

الباحثان الروايات التاريخية للمؤرخين الرومان بل ركزا على البناء في حد ذاته وما يمكن أن يقدم من إشارات، وقد ضمَّنا دراستهما العديد من المعلومات التي تخص هذا المعلم، وشكله وقياساته، وكذا المقارنة الدائمة بينه وبين ضريح مدراسن.

**خامساً: دراسة مونيك باير:**

أجرت الباحثة الفرنسية "مونيك دوندين باير" Monique DONDIN-PAYRE[1] مجموعة من الدراسات والأبحاث حول عمليات التنقيب وأعمال البحث والإستكشاف التي تمَّت بالضريح الملكي الموريطاني (خلال فترة الإحتلال الفرنسي على وجه الخصوص)، حيث قامت بجمعها وترتيبها، ونُشرت الدراسة فيما بعد في مقال علمي تحت عنوان: "حفريات قبر المسيحية في القرن التاسع عشر"(les fouilles du Tombeau de la Chrétienne au XIXe siècle)[2] صدرت الدراسة في باريس سنة 2003م، في أحد منشورات أكاديمية العلوم الفرنسية[3].

---

[1]- مونيك دوندين باير: باحثة فرنسية متخصصة في تاريخ الغرب الروماني القديم وتاريخ الشمال الإفريقي القديم، لها العديد من الدراسات والأبحاث المتعلقة بالمنطقة، منها: ( L'entrée de l'Algérie antique dans l'espace méditerranéen)، و(L'Armée d'Afrique face à l'Algérie romaine)، و(L'archéologie en Algérie à partir de 1830).

[2]- Monique DONDIN-PAYRE : les fouilles du Tombeau de la Chrétienne au XIXe siècle, Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 2003, Vol. 147. N° 3, p. 1139-1157.

[3]- أكاديمية العلوم الفرنسية، اسمها الرسمي هو: (أكاديمية النقوش والآداب الجميلة والتصوير الفوتوغرافي: L'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres et la photographie)، هي أكاديمية

بدأت مونيك باير مقالها بالتأكيد على أن حملة التنقيب الكبرى التي شهدها الضريح الملكي الموريطاني[4] سنتي 1856 – 1866م والتي أشرف عليها "أدريان بيربروغر" – كما أسلفنا – كانت بطلب مباشر من "نابوليون الثالث"، وأن "بيربروغر" أبدى اهتمامه بالقبر الموريطاني منذ سنة 1835م، وأن عملية الإستكشاف تلك جاءت بسبب التساؤلات الكثيرة التي طُرحت حول الضريح[5] الذي لم يكن مدخله قد اكتُشف بعد في ذلك الوقت.

وقامت الباحثة بتفصيل البعثة الإستكشافية الأولى للضريح الموريطاني، حيث قررت أكاديمية العلوم الفرنسية إرسال بعثة له سنة 1855 – 1856م وذلك قبل عملية التنقيب الكبرى بعشر سنوات، لجمع أكبر قدر من المعلومات حول القبر، وقامت البعثة بتصوير الضريح من مختلف الجهات والأماكن، وعادت بمادة فوتوغرافية هامة لا تزال محفوظة في مكتبة المعهد الفرنسي[1].

---

تهتم بدراسات التاريخ والآثار، تأسست سنة 1663م، على يد العالم الفرنسي الشهير "كولبير" Jean-Baptist COLBERT ، عُرفت في البداية بعدة أسماء لكن منذ سنة 1816م حافظت على اسمها الحالي، هي اليوم أحد فروع المعهد الفرنسي l'Institut de France ، ولها العديد من الإصدارات العلمية الشهيرة، أنظر:

Léon AUCOC : L'Institut de France et les anciennes Académies, Paris, Éditions Plon, 1989, p. 48.

(4)- فضَّلت "مونيك دوندين باير" – كغيرها من الباحثين والمؤرخين الفرنسيين – إطلاق تسمية "قبر المسيحية" على الضريح الملكي الموريطاني بدلاً من تسميته الرسمية، على الرغم من أن هذه الدراسة حديثة مقارنةً بالدراستين السابقتين إذ أنها صدرت سنة 2003م.

(5)- Monique DONDIN-PAYRE : op. cit., p. 1139 - 1140.

(1)- Album, Bibliothèque de l'Institue de France, MSZ 154 D.

وتطرقت مونيك دوندين باير بشيء من التفصيل إلى مشاركة "بيربروغر" في تلك البعثة، كما ذكرت مشاركة المصور الأمريكي "جون قريني" John GREENE[2] الذي اشتهر في ذلك الوقت بالعمل في مصر، وتصوير العديد من المعالم الأثرية المصرية، والذي جاء إلى الجزائر – حسب الباحثة دائماً – لتتبع تأثيرات مصرية، ربما اعتباراً للرواية السائدة حول الضريح الملكي الموريطاني والتي تقول أنه قبر "يوبا الثاني" و"كليوباترا سيليني"[3].

بعدها توجهت الباحثة في مقالها إلى شرح وتفصيل الصور التي صورها الأمريكي قريني للضريح، وهي الصور التي رافقت عملية الإستكشاف لسنتي 1855 – 1856م يوماً بيوم، من خلال تتبُّع تقنية التصوير، وشكل الضريح في الأيام الأولى لعملية البحث، وشكله بعدها[4] علماً أنه تم خلال هذه البعثة نزع الأشجار المحيطة بالقبر وكذا تنظيف محيطه، لذلك كان شكله الخارجي يتغير مع كل يوم جديد من عملية الإستكشاف.

وفي محور آخر قامت مونيك باير بتفصيل البعثات العلمية التي جاءت لتصوير الضريح، وصنفتها في قائمة طويلة، بدأتها ببعثة سنة 1835م (وهي السنة التي شهدت أول زيارة قام بها بيربروغر للضريح)، مروراً بسنة 1855م (عملية

(2)- B. JAMMES : «John B. GREENE, an American calotypist», History of photography, 5, oct. 1981, p. 305 – 324.

(3)- Monique DONDIN-PAYRE : op. cit., p. 1141.

(4)- Ibid., p. 1142 - 1145.

الإستكشاف الأولى للضريح)، وسنة 1865م (عملية التنقيب الكبرى تحت إشراف "بيربروغر")،إلى غاية سنة 1885م (التي شهدت عملية تهيئة كبرى لمحيط الضريح)[5].

أنهت مونيك باير مقالها بالتذكير بالدور الذي قامت به أكاديمية العلوم الفرنسية، وكذا دور "أدريان بيربروغر" وأعماله على الضريح، إضافة إلى إبرازها للجانب الفوتوغرافي التصويري وأهميته في جمع مادة علمية أرشيفية كبيرة تخص الضريح الملكي الموريطاني، حيث لا تزال تلك الصور محفوظة إلى اليوم، يعود إليها الباحثون والدارسون ويستفيدون منها.

**خلاصة:**

يعتبر الضريح الملكي الموريطاني أحد أهم العمائر الجنائزية في الجزائر والتي تعود للفترة القديمة، تم اختيار موقعه بعناية، كما يتميز بأطواله وقياساته الكبيرة، وبسبب غياب معلومات دقيقة فقد اختلف المؤرخون والباحثون حول تاريخ بنائه، وذلك بالرغم من وجود رواية كثيرة التداول تقول بأنه بُني في عهد ملك موريطانيا القيصرية "يوبا الثاني" وزوجته "كليوباترا سيليني".

قدَّم الباحث الفرنسي "مارسيل كريستوفل" دراسة موسعة عن الضريح الموريطاني، بعد قرابة الأربعين سنة قضاها في جمع المعلومات حول هذا المعلم، شملت الدراسة العديد من المحاور الكبرى، أهمها: البناء وما يتعلق به، تاريخ إنشائه والروايات المختلفة، عمليات التنقيب والإستكشاف، إضافة إلى مناقشة روايات السكان المحليين التي لها علاقة بالضريح.

(5)- Ibid., p. 1150 – 1153.

أما الباحثان الإيطالي "فيليبو كواريللي" والفرنسي "إيفون تيبرت" فقد أجريا دراسة عن العمارة الجنائزية النوميدية عموماً، لكنهما قاما بإيراد معلومات مفصلة حول الضريح الموريطاني في أجزاء واسعة من البحث، وقاما بالتوسع في دراسة الضريح الموريطاني باتباع طريقة المقارنة بينه وبين الأضرحة النوميدية الأخرى من مختلف النواحي، وناقش الباحثان إشكالية تاريخ بناء الضريح انطلاقاً من علم الآثار وما يمكن أن يقدِّمه في هذا المجال.

وبالنسبة للباحثة الفرنسية "مونيك دوندين باير" فقد ركَّزت في دراستها على عمليات التنقيب الكبرى التي شهدها الضريح، مع إبراز عملية الإستكشاف الأولى سنة 1855 – 1856م وأهميتها بالنسبة لبقية العمليات الأخرى، وتأكيدها على الدور الكبير الذي قام به "أدريان بيربروغر"، ودور أكاديمية العلوم الفرنسية، إضافة إلى توسعها في الجانب الفوتوغرافي التصويري الذي رافق عمليات الإستكشاف والتنقيب في الضريح.